



مقدمة:

إن الله جل جلاله هو خالق الخلق ومدبرهم، يقضي فيهم برحمته وعدله على ما تقتضيه حكمته وعلمه، وهو الحكيم العليم، اصطفى سبحانه المؤمنين من عامة البشر؛ لعلمه بصلاح قلوبهم للإيمان، واستقامتها عليه، ولا يعلم ما في القلوب إلا خالقها سبحانه وتعالى:

(فُلْ إِنْ تُخْبُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُ اللَّهُ) (آل عمران: 29). وفي الآية الأخرى:
(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) (الأحزاب: 51). وفي ثالثة:
(أَوْلَئِسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) (العنكبوت: 10).

عناصر الخطبة:

- 1- تزكية النفس بحصر الحق بها ونفيه عن الغير من صفاتبني إسرائيل.
- 2- النهي عن تزكية النفس، ونسبة الهدایة إلى الله.
- 3- النهي عن تزكية الرجل ومدحه في وجهه.
- 4- ما يشرع من التزكية.
- 5- مزالق تزكية النفس.
- 6- خوف السلف من تزكية النفس.

1- تزكية النفس بحصر الحق بها ونفيه عن الغير من صفاتبني إسرائيل

الإيمان والصلاح والفالح في أمور الدين والدنيا، ما هي إلا هبات يهبها الله تعالى من شاء من عباده، وواجب على المهووبين شكر الله تعالى على ما وهبهم، مع الحذر من الغرور بما أعطوا، وإن كانوا كأمة بني إسرائيل حين أنعم الله تعالى عليهم بالملك والتبوة، وفضلهم على الأمم التي قبلهم، فغرهم ذلك، وجراهم على الله تعالى، فاستنكفوا عن عبادته، وكذبوا رسلاه، زاعمين أن الله تعالى ما وهبهم الملك والتبوة إلا لقربهم منه سبحانه (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى تَحْنُ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَحْبَابَهُ) (المائدة: 18) وقادهم غرورهم إلى احتقار غيرهم، والإزراء بهم ولو كانوا مؤمنين موحدين، فادعوا حصر الهدایة في ضلالهم وانحرافهم (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا) (البقرة: 135) وزعموا قصر الرحمة والجنة لهم دون غيرهم ولو كان غيرهم أكثر صلاحاً وتقوى منهم (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) (البقرة: 111).

ولأجل اعتدادهم بمسلكهم، وغرورهم بعملهم، وتزكيتهم لأنفسهم؛ عابهم الله تعالى وذمهم، وردّ زعمهم، وفضح كنفهم، وأظهر حقيقتهم، ورفع الأمة الخاتمة عليهم، وسلبهم أفضليتهم ووهبها لغيرهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكِّونَ أَنفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا) (النساء: 49-50).

2- النهي عن تزكية النفس ونسبة الهدایة إلى الله

إن تزكية النفس بغير وجه حق خلق ذميم، ومزالق خطير، يورد صاحبه موارد بني إسرائيل، في الاعتداد بالنفس، والغرور

بالعلم والعمل، والاستنكاف عن قبول الحق، ونتيجة ذلك الضلال والإضلal.

وكثيرٌ من نكصوا على أعقابهم، واستبدلوا الردى بالنجاة، والضلال بالهدى، والكفر بالإيمان، فارتدوا وتزندقوا، وانقلبوا على دين الله تعالى طعناً فيه وقدحاً، ورفضاً لشريعته؛ كانت بداية ضلالهم وانحرافهم تزكيتهم لنفسهم، واعتدادهم بآرائهم، وغرورهم بأعمالهم.

من أجل ذلك نهى الله تعالى العباد أن يستكثروا أعمالهم الصالحة؛ فإنها مهما بلغت لا توازي نعمة واحدة من نعم الله التي لا تمحى. كيف؟! والهداية إلى الحق، والتوفيق للعمل الصالح ما هو إلا من نعمة الله تعالى على عبده، فلولاه لضلّ الطريق وعمل شراً ولم ي عمل خيراً،

(فَلْ إِنْ ضَلَّلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) (سبأ: 50).

وكان صلى الله عليه وسلم يرفع صوته يوم الخندق يرتجز: (اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَحْدَدْنَا وَلَا صَلَّيْنَا) (البخاري/3034، ومسلم/1082).

وجاء النهي عن استكثار العمل الصالح في أوائل التوجيهات الربانية النبي عليه الصلاة والسلام كما في سورة المدثر (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (المدثر: 6)).

قال الحسن رحمه الله تعالى في معناها: لا تمن بعملك على ربك تستكثره.

وما نهى العباد عن استكثار العمل الصالح مهما بلغ إلا لأنه سبب لتزكية النفس بلا حق، وقد نهى العباد عن تزكية نفوسهم (فَلَا تُزَكِّوْا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) (النَّجَم: 32).

فإن كانت تزكية العبد لنفسه في أمور الدين كان المزكي لنفسه مَنَّاناً بعمله على ربه، مت الخالق بأخلاق من ضلوا من أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وهذا من أعظم أسباب الضلال والانحراف.

وإن كانت تزكية النفس في أمور الدنيا فهي دعاية ممجوحة لها قد تصل ب أصحابها إلى العجب والغرور والحسد والكبر وفساد القلب، وكل هذه من عظام الذنوب وموبيقاتها.

3- النهي عن تزكية الرجل ومدحه في وجهه:

روى مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميته ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم). فقالوا: بم نسميها؟ قال: (سموها زينب) (مسلم: 2142). وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: أثني رجل على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (وَيْلٌ كَقَطَعْتَ عُنْقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنْقَ صَاحِبِكَ) مِرَارًا، ثُمَّ قال: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ أَحَسِبُ فُلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أَزْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ) (البخاري: 2662).

وعن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقينا المذاхين أن نحثو في وجوههم التراب) (رواية أحمد: 23826).

4- ما يُشرع من التزكية:

وقد يحتاج العبد إلى تزكية نفسه لدفع ضرر أو تحقيق مصلحة راجحة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَشَقُّ عَنِ الْقَبْرِ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ) (رواية مسلم).

ولما ظن بعض الناس أنه يُرخص للنبي عليه الصلاة والسلام ما لا يرخص لهم أزال هذا الظن الفاسد بتزكيته لنفسه فقال: (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَائُكُمْ لَهُ وَأَنْتَمُ كُلُّهُ) (رواية البخاري).

وقال يوسف عليه السلام (أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظْ عَلَيْم) (يوسف: 55) فذكرى نفسه بالأمانة والعلم؛ لمصلحة

راجحة وهي نفع الناس، مع عدم وجود كفءٍ مثلاً.

ولما خرج الخوارج على عثمان رضي الله عنه وقد حذروا فيه درأ عن نفسه، وذكر محسنه، وأخبرهم بأعماله الصالحة كتجهيز جيش العسرا، وحفر بئر رومة وغير ذلك، وأعلمهم بشهادة النبي عليه الصلاة والسلام له بالجنة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى تعليقاً على أحاديث إخبار عثمان رضي الله عنه بذلك: (وفيها جواز تحدث الرجل بمناقبه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضره أو تحصيل منفعة وإنما يكره ذلك عند المفاخرة والمكاثرة والعجب..).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناه المطايأ لأنتيه).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكتُر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبر بذلك ليكتُر به عند الناس ويتعظم، وهذا يجازيه الله تعالى بمقت الناس له وصِغرِه في عيونهم، والأول يكتُرُه في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمال بالنيات، وكذلك إذا أتنى الرجل على نفسه ليخلصَ بذلك من مظلمة وشرٍ أو ليستوفيَ بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله أو ليقطع عنه أطماء السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله، والأحسن في هذا أن يُوكِل من يُعرِفُ به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصيرٌ، وهو في الغالب مذموم؛ لما يقترن به من الفخر والتعاظم). (مفتاح دار السعادة 1/139).

فإن لم يكن للعبد مصلحة راجحة في ذكر محسن نفسه، ولا يدفع بذلك مضره واقعه؛ فخير له أن لا يذكر نفسه، وأن لا يظهر محسنها، بل يجعل ذلك بينه وبين الله تعالى؛ فإن الله تعالى يعلم حسناته وسيئاته. وليتذكر العبد سيئاته في نفسه، ولا يشهرها أمام الناس؛ لئلا يكون من المجاهرين؛ ولأن ذم الشخص نفسه أمام الناس مدح لها بالتواضع، فیأتیه الشيطان من الباب الآخر فيفسد قلبه،

قال الحسن رحمه الله تعالى: (ذم الرجل نفسه في العلانية، مدح لها في السر، ومن أظهر عيب نفسه فقد زکاها).

5- مزالق تزكية النفس:

تزكية العبد نفسُه تؤدي به إلى تعظيم ذاته، وهضم الآخرين وتنتقصُهم، واحتقار أعمالهم ولو كانت كبيرة،

قال محفوظ النيسابوري رحمه الله تعالى: من أبصر محسن نفسه ابتدى بمساوي الناس، ومن أبصر عيوب نفسه سلم من رؤية مساوي الناس.

وقد تعظم تزكية النفس عند العبد حتى تتحول إلى مرض خطير يعيش فيه ذاته، وهو ما يسميه علماء النفس: النرجسية، فلا يتحدث إلا بها، ولا يرى سواها، ولا يعجب بغيرها، نسأل الله تعالى العافية والسلامة

والمزكي لنفسه واقع في الكذب لا محالة؛ لأنه يطلب ثناء الناس وإعجابهم، وقد لا يفي عمله بجلب ثنائهم له فيزيد من عند نفسه ما لم يعمل ليملأ عيونهم، وينال إعجابهم، فيثنوا عليه بما لم يفعل، ويُخشى على من كان كذلك أن يكون من أهل هذه الآية (لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (آل عمران: 188).

ومن كذب بما لم يفعل، وتشبع بما لم يعط، فقد كسا نفسه زوراً؛ كما روت أسماء رضي الله عنها: (أَنَّ امْرَأَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ, إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيْ جُنَاحٍ إِنْ تَشَبَّعَتْ مِنْ زَوْجِي غَيْرِ الذِّي يُعْطِينِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطِ كَالِسٌ ثَوْيٌ زُوْرٌ) (متفق عليه).

6- خوف السلف من تزكية أنفسهم:

ولقد كان السلف الصالح عليهم رحمة الله تعالى أشد الناس حذراً من هذا المزلق المهلك، مع قوة إيمانهم بالله تعالى، وكثرة أعمالهم الصالحة، فلا يفخرون بأفعالهم، ولا يحبون ظهورها للناس، ويلحظون نعم الله تعالى عليهم، فيُزرون بأنفسهم،

ويحقرن أعمالهم خوفا من العجب والرثاء وحبوط العمل..

لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ جعل ابن عباس رضي الله عنهم يثنى عليه، وينظر له مآثره؛ ليقوى جانب الرجاء في نفسه، فقال عمر رضي الله عنه: المغدور من غررتموه، لو أن لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع.

وقال أيضاً لما أثنى عليه الناس عند احتضاره: (رَاغِبٌ رَاهِبٌ، وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ مِنْهَا كَفَافًا، لَا إِلِي وَلَا عَلَيْ، لَا أَتَحَمَّلُهَا حَيَا وَلَا مَيَاتًا) (البخاري: 7218)

وكان قيس بن عاصم رحمه الله تعالى من أوفر الناس حلماً وعقلاً وسخاءً، قال له أبو بكر رضي الله عنه: صفت لنا نفسك، فقال: أمّا في الجاهلية فما هممت بملامة، ولا حِمْتُ على تهمة، ولم أَرِ إلَّا في خيلٍ مغيرة، أو نادي عشيرة، أو حامي جريدة، وأمّا في الإسلام فقد قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكِّوْا أَنفُسَكُمْ) فأعجب أبو بكر رضي الله عنه بذلك.

وكان الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى من أعلم الناس، وكان أحفظ أهل عصره للحديث وأخبرهم بعلمه، فسألته رجاءً المعبد: هل رأيت مثل نفسك؟ فقال: قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكِّوْا أَنفُسَكُمْ) (النَّجَم: 32) قال رجاء: فألححت عليه، فقال: لم أر أحداً جمع ما جمعت، قال أبو ذر الحافظ: قلت للحاكم: هل رأيت مثل الدارقطني؟ فقال: هو لم ير مثل نفسه فكيف أنا؟.

من نظر في أحوال كثير من الناس في هذا العصر يجد أن تزكية النفس داء قد انتشر بينهم، وكان من أسباب انتشاره وسائل الإعلام، التي تنقل حديث المحدثين عن أنفسهم، وحديث من ينفخون فيهم من أتباعهم والمتعلمين لهم، حتى كثر الحديث وقل العمل، وأضحي أصحاب الثرثرة وباعة الكلام هم سراة الناس وسادتهم، ومن كثر كلامه قل عمله، ومن قل كلامه كثر عمله، والأعمال تتحدث عن أصحابها، ولا تحتاج إلى تزوير المزورين، ولا تطبيل الإعلاميين، ولا تحفظ كتب التاريخ إلا سير من يستحقون الحفظ من عظماء الرجال، وأفذاذ الناس

فالحذر الحذر عباد الله من تزكية النفس بلا حق، ومن الثناء عليها بلا موجب، ومن أُعجب بشيء من عمله فلينظر إلى ذنبه وتقصيره، ومن سرته حسنة، فلتستؤه سيئته حتى يكون مؤمنا.

المصادر: